شاهيناز الفقي..

(14) الموتى يؤذُون أحيانًا

لماذا نخشى السير بين المقابر ليلًا مع أن الموتى لا يؤذون أحدًا؟! لم نسمع عن مُتوَفًّى خرج من مدفنه ليثبّت المارين ويسرق ما معهم، ولم نرَ قتيلًا يخرج من مقبرته ليأخذ بثأره، الموتَى مسالمون لا يؤذون بقدرِ ما يفعل الأحياء.

دارت تلك الخواطر في ذهني وأنا أمرّ بذلك الشارع الضيق بين المقابر، قرأت الفاتحة، توقفتُ عن السير حين لاحظت حركة مريبة وأصوات تنبعث من بين القبور، توقعتُ أن يكون أحد نباشي القبور الذين يسرقون الأكفان، أو لصوص الجثَث، وخاصة أننا في موسم امتحانات، وطلاب الطب يعرضون مبالغَ خيالية من أجل الحصول على جثة، أو يكون جماعة الحشاشين في المنطقة والذين يستغلون القبور ويحوّلونها لغرزة لتعاطي الحشيش وحقن المورفين بعيدًا عن أعين الشرطة، وقد يكون رجل وامرأة من أهل الحي لم يجدا مكانًا أهدأ وأكثر رومانسية من تلك القبور للموت عشقًا، استجمعتُ شجاعتي، ووضعت ذيل جلبابي في فمي ودخلت المدفن، وأنا ازعق بصوتي قائلًا:

– يا ساتر.. مَن هُناك؟!

لمَ لَم يأتني رد؟! أيقنتُ أن في الأمر شيئًا مريبًا، ربما هذا القبر مسرح لجريمة لم تكتمل بسبب وجودي، وربما أرسلني الله في الوقت المناسب لأحُول دون وقوعها، كان الأمر غريبًا؛ فقد رأيت عمّي وابنه يمسكون برجل من أهل قريتنا ويوثقونه بالحبال في أحد الأعمدة، كان

الرجل يصرخ طلبًا للنجدة بعد أن أطفأوا في جسده أعقاب السجائر، وكلّما علا صوته كلّما تعرض للضرب من أقاربي، سألتهم بدهشة عمّا فعله الرجل يستوجب العقاب، أجابني ابن عمي بصوته الأجش يحكي لي عما حدث قائلًا:

– سأحكي لك يا ابن عمي والحكم لكَ في النهاية.

أومأت برأسي أنتظر أن أعرف ما الذي يدفع عمي الرجل المسالم وابنه لخطف رجل وتعذيبه في المقابر، أشار ابن عمي للرجل وجذبه من شعره؛ ليرفع رأسه في حركة سينمائية رأيتها من قبل كثيرًا في أفلام نادية الجندي وهي تصرخ كعادتها:

– كما تعرف وأهل البلد كلهم يعرفون أننا نمتلك قطعة الأرض في الجهة الشرقية، وقد زرعناها موالح وفواكه، وكانت أرضنا بمثابة جنّة، وبنينا دارًا كبيرة وزريبة للمواشي، كل الأمور كانت على ما يرام.

نظرت لعمي أريد أن أعرف ما العلاقة بين جنّتهم وأفعال الشياطين التي يرتكبونها في حق الرجل! من ركل وضرب وتعذيب، قال عمي يكمل الحديث وهو يضع شريطًا لاصقًا على فمّ الرجل بعد أن حاول أن يستنجد بأحد المارة:

– هذا الرجل هو بسطويسي، تاجر الفاكهة والذي يحتكر فاكهة القرية كلها، لا يوجد فلاح يستطيع أن يبيع كيلو واحد دون موافقة بسطويسي.

زمجر الرجل ونظر لي بفزع وهو يحرك رأسه يمينًا ويسارًا في محاولة للتخلص من الشريط اللاصق، جذبه ابن عمي من رأسه مرة أخرى وصفعَه عدة صفعات، وأكمل حديثه قائلًا:

– كان الأمر يزعجنا، ولكن علاقاته بالعمدة وأعيان البلد كانت تمنحه سلطات كبيرة، وكل من يقَف في وجهه كان مصيره إما السجن

أو حريق يشب في أرضه، ولكن ليس هذا هو السبب فيما نفعله فيه الآن، ولكن هناك سبب أهمّ وجريمة أكبر يستحق عليها العقاب.

تحرك بسطويسي في كرسيه يحاول التملص والمقاومة، إلا أن ابن عمي عاجَلَه بضربة قوية فوق رأسه، وركله في بطنه بعنف حتى سالت الدماء من فمه، أكمل عمي وهو ينظر باحتقار للرجل، وقال بصوت يحمل ازدراءً:

– قد يتغاضى الإنسان عن مصلحته يا ابن أخي، ولكن هل يمكن التغاضي عن الشرف؟ ذلك الوغد الحقير استغل فرصة غيابنا واستطاع أن يغرر بابنتي ناديًا، اعتدَى هذا الحقير على شرف ابنة عمك، على شرف أهلك، استغلّ سذاجتها وشعورها بالوحدة، وعدها بالزواج، وبعد أن نال غرضَه منها تركها فريسة للفضيحة، ولم يكتفِ بذلك، بل احتال عليها واستولى على الأرض.

شعرتُ بالدماء تتدفّق لرأسي، والغضب يزلزل كياني، هذا الحقير يعتدِي على شرفنا! ابنة عمي تلك الفتاة البريئة، وبدون وعي مني ركلته في بطنه، صفعته عدة صفعات، وسألت عمي كيف حدث ذلك ومتى؟! أجابني وقد نكس رأسه في الأرض، وقد سيطر شعور الحزن على نبرات صوته:

– كان ذلك بعد وفاتنا أنا وابن عمك في حادث السيارة.

نظرت لابن عمي الذي كان منهمكًا في خلع أظافر المدعو بسطويسي أستوثق من الأمر، نظر لي وأومأ برأسه علامة التصديق على كلام والده، شعرتُ بغصّة في حلقي وأنا أنقل النظر بين عمي وابنه، للمرة الأولى أنتبه أنهما يرتديان أكفان بيضاء ولا يظهر منهما سوى وجوههما وأيديهما، تذكرت تلك الحادثة المروّعة التي انقلبَت فيها سيارة ابن

عمي وتُوفّي هو ووالده، شعرتُ بالرعب؛ حيث إنني حاليًا أقف وأتحدث مع أقاربي المتوفّين منذ شهور قليلة، حاولتُ ألا أظهر حالة الفزع التي انتابتني خشية غضبهم، تظاهرتُ بالغضب الشديد من بسطويسي، وركلتُه في جنبه الأيسر قبل أن أقول بصوت حاولت أن يبدو طبيعيًا:

– إنه وغد حقير، والله لا يكفي هذا العقاب على جريمته، إنه يستحق القتل.

نظر ابن عمي لأبيه وقد تملكته الحيرة من أمري، وابتسم لي قائلًا:

– لقد قتلناه بالفعل.

اندهشتُ من الأمر، سألته:

– قتلتموه؟!

نظر لي عمي بتعجب وهو يقول:

– نعم.. منذ ثلاثة أشهر، ألا تتذكر؟

تذكرتُ بالفعل حادثة قتل بسطويسي، حين استيقظ أهل القرية على حريق شبّ في داره ولم ينجو منه أحد.. كانت حادثة مروّعة قُيّدَت في النهاية قضاء وقدر.

ابتلعتُ ريقي وحاولت السيطرة على رجفةٍ أصابت نصف وجهي الأيسر، نظرتُ للرجل المكبل على الكرسي، ونظرت لهم.. إنهم مجموعة من الأموات يصفُّون الحسابات فيما بينهم، قلت وأنا أستجمع شجاعتي:

– إنه يستحق العقاب وأكثر، ولو لم يكن لدي ميعاد كنت قطعته إربًا.

رفعت يدي ملوحًا لهم، وتسلّلتُ للخارج محاولًا الهرب، لولا أن لحقني ابن عمي يستمهلني، قائلًا بصوته الأجش وهو يضحك:

– انتظر قليلًا.. هل ستخرج على الناس بهذا الشكل.

نظرتُ لنفسي وتعجبت، كان جسدي عاريًا تمامًا بعد أن سرق أحد لصوص المقابر الكفن الذي كان يستر جثماني أول أمس.